

بسم الله الرحمن الرحيم
أزمة الخطاب الديني المعاصر وغياب فكر المقاصد
المظاهر والحلول

د. بغداد بردادي
كلية الآداب واللغات والفنون -
ج. سيدي بلعباس

ملخص ورقة البحث: يسعى هذا البحث لتقصي مظاهر الخطاب الديني المتأزم كما تتمثله بعض النخب بأصنافها-الفكرية والسياسية والأكاديمية-والتي توظف لغة تتكشف عن افتقار معرفي لأصول المعتقد ومقاصده التي بعث النبي صلى الله عليه و سلم من أجل الحفاظ عليها " الدين-النفس-العقل-العرض- المال". ليس هذا و حسب ،بل إن الخطاب يفتقر لخلفيات الفكر المعاصر المتدافع ،وهذا ما يجعله أجوفا خاليا من فقه الدين و الواقع ،بعيدا كل البعد عن الممارسة المقصدية لأمة أرادها الله أن تكون خير أمة أخرجت للناس . يتضح هذا جليا لكل متتبع للغة الخطاب الديني المعاصر.

والمخرج من أزمة هذا الخطاب، ليس إلا تجديده في ضوء علم المقاصد :

1-و ذلك بترشيد العقل المفكر وضبط مستويات الخطاب والتواصل على مستوى المرجعية ليكون وسطيا

2- وعلى مستوى المصلحة الشرعية و فقه مبدأ الأولوية ليكون منطقيا

3- و على مستوى لغة التواصل ليطابق المرجعية الدينية و يشاكل مقاصدها، ليكون شرعيا.

مقدمة:

يعد موضوع الخطاب الديني، آلياته اللسانية وأساسه المعرفية من أهم الموضوعات المطروحة، ومحور أزمة الخطاب الديني المعاصر هو بمثابة النواة من الخلقة، وعرضه للبحث والمناقشة من الأهمية بمكان، ومن هنا يطيب لي أن أوجه شكري لمنظمي الملتقى على حسن اختيارهم للموضوع و محاوره، لما له من أهمية بالغة تعود بالنفع على الدين والوطن.

وهذا هو الأصل في اختيار عناوين الملتقيات و الندوات، إذ يفترض فيها أن تلامس جراح الأمة و قضايا العصر، وأن ترجع بالخير على الإسلام والمسلمين أكثر من غيرها، و بخاصة و نحن في زمن يشهد اضطرابات في جميع الأصعدة. ما يوجب علينا متابعة الحدث وإيجاد مخرج لأزمة هذا الخطاب الديني، لنؤمن له عرض دين الله في أمثل صورة معنى و مبنى، فهو حق ونور، ولا يوجد فيه ما يشينه أو ما يمكن أن نخجل لدى عرضه للناس. وعلى النقيض من ذلك نجد الديانات الأخرى قائمة على الأباطيل والأساطير والخرافات بما هو شبيه بقصص ألف ليلة وليلة في تراثنا السردى القديم، بل بما هو أشنع و أخجل للمرئ، إذ يستحي الرجل من نفسه أن يقرأ ذلك لنفسه، فهو محل للسخرية، و يستحيل أن يجد القبول من عاقل على أنه من عند الله على الحال الذي هو عليه الآن، و إن كان أصل العهدين من عند الله تعالى.

ودين بمنزلة الإسلام أهل أن يقوم له من يدافع عنه و ينق الجهد في السعي إلى تقويم خطابه و المساهمة بالكلمة الطيبة في ترشيده.

يجد الخطاب الديني ضمن مجموع الخطابات التي تتداولها الأقلام المعاصرة موقعا أساسيا في سياق الحديث عن أزمة المجتمع العربي

والإسلامي، إذ أن للخطاب الديني تأثيرا بالغاً في تشكيل الوعي الإسلامي نحو أفق لا يوجه سلوكه فحسب، بل يحدد مصيره المستقبلي داخل حركية الفكر العالمي وما يكتنفها من مؤامرات تتزيّ بزيّ كاذب يظهر الحريات والديمقراطيات، ويضمّر حقيقة بائسة وهي الماثلة في الموجة الاستدمارية الجديدة، وقد استثمرت عثرات الخطاب الديني الإسلامي المعاصر، خاصة وأن هذا الخطاب يجد اهتماماً كبيراً في مراكز الدراسات الشرقية والإسلامية في دور الغرب الحكومية والأمنية من خلال فكر الفوبيا (الخوف) من الإسلام، ثم باعتباره شكلاً من أشكال التواصل الاجتماعي على مستوى الفرد والجماعة، بل لكونه مكوناً ثقافياً، إذ كثيراً ما كان موضوع حوار الحضارات أو صراعها.

أما هذه العثرات التي تشكل عمود ورقة البحث الوارد في عنوان: "أزمة الخطاب الديني وغياب فكر المقاصد-المظاهر والحلول"، فأحسب أنّها تحصر في مسألتين، وهما:

1- أزمة العقل المسلم المنتج للخطاب

2- أزمة التواصل في دورة الخطاب

لا شك أن أزمت الخطاب الديني كثيرة معقدة، ولكنني أعتقد أن أزمتي العقل والتواصل هما أسّ الأزمة.

قبل أن نلج الموضوع قد يكون من البيان الوقوف وقفة إيضاح للكلمات المفتاحية لعنوان الورقة البحثية: "أزمة- الخطاب الديني- المقاصد".

1- الأزمة:

1-أ: المفهوم اللغوي:

مفهوم الأزمة مفهوم رائج، إذ أنه من المفاهيم التي تمس مناحي الحياة الإنسانية على مستوى الفرد والجماعة، ليس هذا وحسب، بل إن لفظ

www.mana

الأزمة أصبح مصطلحا ضمن نظرية أو علم قائم بذاته، و اللفظ في دلالاته اللغوية يراد به "الشدة و القحط والضييق" 1 .

1-ب: المفهوم الاصطلاحي:

الأزمة " هي موقف يحدث فيه صراع أو تضارب في الأهداف أو المصالح مما يؤدي إلى حالة من الصدام السياسي أو العسكري" 2.

ويذهب البعض إلى اعتبارها حالة استثنائية طارئة تتعرض لها المجتمعات، فتصاب بالتوتر و القلق، و تنذرنا بوقوع الخطر، سواء كانت هذه الأخطار مادية أو معنوية.

2- الخطاب الديني:

يتقدم الخطاب الديني في المجتمع الإسلامي والعربي جميع أنواع الخطابات، وكثيرا ما يشاكلها ويهيمن عليها، ليس هذا وحسب لمنزلته في الناس، بل - وكذلك - لصلته بمصادر الأمة في العقيدة والتشريع، " ومن ناحية أخرى، فإن الخطاب الديني أصبح مرآة لصورتنا أمام الأمم والحضارات الأخرى، فمن خلاله تتشكل الانطباعات والتقويمات عن أمتنا وديننا وثقافتنا" 3 . والخطاب في حقيقته اللغوية هو " مراجعة الكلام" 4.

وإذا كان الكلام هنا هو النص القرآني والحديثي وأقوال الفقهاء وعلماء الدين، فسيكون الخطاب الديني - بهذا الاعتبار - كلاما حول أو في كلام يتباين في مصدريته السماوية أو الأرضية، ثم من حيث قداسته وتنزيهه عن كلام المخلوقين، وإلا كان "مساويا لتعبير تجديد الدين" 5. وهذا غير مستصاغ ولا مقبول، إذ أن الدين قد اكتمل و نصوصه ضبطت، و قد استقبلتها الأمة بالقبول.

وعليه، يكون الخطاب الديني المقصود والمنعوت بالأزمة، إنما هو الإنتاج الفكري ذي الصبغة الدينية، أو القائم على الدراسات الإسلامية أو علوم الشرع، وأما المقصود بمراجعته، إنما هو مراجعة أساليب طرحه، ومظاهر الطرح في المنوال واللغة، إذ أن الإشكالية في الخطاب تكمن في "افتقاره لفهم مقاصد الشرع"⁶ خاصة الصحفي منه خاصة.

3- المقاصد:

يراد بالمقاصد لغة الطريق المستقيم لقوله تعالى: "وعلى الله قصد السبيل" النحل/9 والتوسط وعدم الافراط لقوله تعالى: "واقصد في مشيك" لقمان/19، وفي الاصطلاح هو العلم الذي وضع العلماء أساسا لحفظ "الكليات المقاصدية الخمس (حفظ الدين و النفس والعقل والنسل أو النسب والمال) وذكروا المصالح الضرورية والحاجية والتحسينية... وذكروا أدلة من المعقول و المنقول الدالة على حقية المقاصد و حجيتها"⁷.

ضمن هذا الثالوث المصطلحي تطرح إشكالية الخطاب المتأزم بين واقعه الراهن في مظاهره و بين المأمول في تمظهر الحلول في الفكر المقصدي حسب الرؤية التي ارتضاها البحث.

2- مظاهر أزمة الخطاب الديني:

عندما ينظر الناظر المتابع في دورة الخطاب الديني وعناصرها نظرة ناقدة بصيرة سيكتشف -لا محالة- أن الخلل قد يتجلى بكل وضوح في الملقى للخطاب من حيث مناسبته للموضوع وتحقيقه لأدلته صحة ومناطاً، وقد يكون الخلل في المتلقي باعتبار عدم فهمه عن المرسل لسياقات الخطاب، وقد يتجاوز الخلل طرفي الخطاب إلى غيرهما من عناصر الدورة، كأن تتمنع لغة

الخطاب الديني عن مناسبة السياق أو مخالفته كما هو الشأن في المصطلح الشرعي الذي انزاح عن حقيقته الأولى، ولنا في مصطلحي (الأنا والآخر) أوضح مثال في أزمة الخطاب الديني المعاصر.

وإذا أمعنّ النظر في دورة الخطاب الديني وجدناها تتشكل في أزمة كبرى تغذيها أزمات فرعية في صورة دوائر تتجاذب نحو المركز متدافعة متغالبة، مدى وجزرا في حركية دائبة إلى البؤرة، تلك صورتها في لغة المجاز، وفي لغة الحقيقة هي في العدد أزمستان، و في المعدود هي كذلك و يأتي في مقدمتها:

- أزمة العقل المنتج للخطاب الديني في التفكير و المنهج

- أزمة التواصل في الخطاب الديني

1:2- أزمة العقل المنتج للخطاب الديني في التفكير و المنهج

إن العقل الذي نريد هنا هو العقل العربي الإسلامي، باعتباره صنيع الأصول اللغوية والثقافية التي تشكل داخلها، ثم أنتج خطابا دينيا يتسم بمرجعيات امتزج فيها التراث بالمعاصرة، والموروث التاريخي بالراهن الحداثي " والتفكير بواسطة ثقافة ما، معناه التفكير من خلال منظومة مرجعية تتشكل إحدائياتها الأساسية من محددات هذه الثقافة ومكوناتها، وفي مقدمتها الموروث الثقافي و المحيط الاجتماعي والنظرة إلى المستقبل، بل والنظرة إلى العالم، إلى الكون، والإنسان، كما تحددها مكونات تلك الثقافة. و هكذا، فإذا كان الإنسان يحمل معه تاريخه شاء أم كره، كما يقال، فكذلك الفكر يحمل معه، شاء أم كره، آثار مكوناته وبصمات الواقع الحضاري الذي تشكل فيه ومن خلاله" 8 . قد يكون هذا العقل العائق الأول في مسار الأمة التنموي، بوصفه حاملا لميراث

جامع بين الغث والسمين والجميل و الشنيع، ففكرنا في الخطاب الديني كثيرا ما يعكس المرجعية التاريخية و ما تحمله من إقصاء للآخر في تفسيره أو تبديعه و تكفيره، وهذا الفكر ليس من الدين ابتداء، لأن لهذه الإجراءات ضوابط ، وللضوابط أهل ، ثم إنّ الأصل في الدين العفو والسماحة وعذر الجاهل بجهله، وحوار من يرى أنه أخطأ، و تلك منطقة أهملها الخطاب الديني لغلبة العقل السائد على العقل الفاعل؛ و تلك عوائق نفسية" روضت العقل المسلم ترويض الحيوانات الكاسرة، فلا يجروء على إمعان النظر في تراثه"9 ، ولا القدرة على مراجعته، فقد صنف في درجة المقدس خاصة في بعض المدونات الفقهية المذهبية، فالأزمة أزمة عقل لا أزمة عقيدة. و هذا العقل السائد الذي أعطيت له مقاليد السيادة المطلقة هو في حقيقته"مجموع المعايير المعتمدة و التي حظيت بالقبول في فترة زمنية ما"10 من الفكر العربي الأول الذي ينسبه ابن خلدون لأفراد الأمة في طورها البدائي، والذي لم تستطع أن تتجاوزه "لاستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم، فصار لهم خلقا و جبلة"11، ويصف ابن خلدون الدواء لهذا العقل العربي العليل، والذي ما يكون إلا بالتزام الدين الصحيح منهجا وسلوكا، فالعرب"لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر من الدين على الجملة.

والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة و الأنفة و بعد الهمة"12.

يشكل هذا العقل الجانب الأصولي في الخطاب الديني العربي المعاصر (بمفهوم الغرب)، والبعض الآخر و هو الجانب المتساهل في خطابه

الديني لأقصى درجات التساهل حتى بلغ درجة الميوعة والاستخفاف و هو يريد التيسير في شأن الدين، و لعل أصح مثال يضرب لذلك هو جمال البنا الذي ذهب في منهجه في تجديد الخطاب الديني إلى تجاوز تفاسير القرآن و شروح الحديث و علومه، و دعا إلى ترك الناس يفهمون القرآن والسنة بما تيسر لهم من استيعاب للمضامين العقدية و التشريعية، وقد اعتبر لفظ الحكمة مشاعا بين الناس¹³، و في اعتقادي هذا أمر يحتاج إلى المراجعة.

وهناك إشكالية كبرى في العقل العربي-قديمة حديثة- لم يستطع أن يتجاوزها أو يجد لها حلا وسطا، تلك هي إشكالية أولية التفسير النقلي أو العقلي للنصوص، وقد أشار لهذه القضية محمد عابد الجابري في مؤلفه العقل الأخلاقي العربي¹⁴ وما زالت تشكل بؤرة صراع بين أنصار التفسير النقلي للنص وأنصار التأويل المطلق، وهذا ما يتمثل في الصراع بين المنهج السلفي والمنهج الباطني، يتجلى ذلك في إنكار الأول للمجاز في العربية والقرآن، وإفراط الثاني في تأويل النصوص تأويلا لا يقبله العقل و الخطاب الديني المعتدل، حتى قال بعضهم: "ما من تنزيل إلا و له من تأويل".

حيال أزمت العقل المتعددة و غيرها كثير(أزمة العقل المتبني للفكر الإستشراقي و العقل العروبي القومي و العقل المتبني لقطرية الدين) يستحيل بناء خطاب ديني راشد مرشد إلا في حالة العودة إلى منابع أصول الدين ومقاصده العليا.

2-2: أزمة التواصل في الخطاب الديني:

تتمثل هذه الأزمة في نظرة النخب لمتلقي الخطاب الديني على أنهم دونهم في المنزلة، و كأنهم من الرقيق أو الأتباع، وهذه النظرة التقليدية تجعل

صورة جمهور الناس - قراء ومستمعين - مجرد مأمور يستمع، فيطيع بالامتثال، ثم إن هذه النظرة لا تنظر للإنسان في كليته و لا ترى فيه وازع المخالفة و لا تحترم فيه قصوره ولا ضعفه، وفي المقابل تجد النص القرآني يثبت هذا و ذاك في آيات، قد يكفينا المقام بذكر واحدة و هي قوله تعالى: "وخلق الإنسان ضعيفا" النساء/ 28 وذلك أن الخطاب الديني يهمل في كثير من الأحيان الجانب الواقعي من الحياة اليومية والمعاناة التي يجدها من المعاناة والجهد، ولا يشتغل هذا الخطاب إلا على الدعوة لامثال الطقوس في حرفة متناهية مقيما لغة الحجة بأنموذج السلف.

الأسلاف يحترمون، و يتأسى بهم ويتخذون قدوات في مواطن الإيمان والإسلام والإحسان، سواء كانوا علماء أو مصلحين، و لكن لا يقصدون ويتخذون أربابا من دون الله، والأمثل في الخطاب القصد في الرؤية والتوسط في المنهج بين النظرة المافوقية المثالية للسلف و الماد ونية السفلية للخلف، وقد نجد هذا الخطاب عند بعض الطوائف الدينية ضربا من الجلد للذات أو نوعا من أساليب قضاء المآرب، و مثل هذه الرؤية الأخيرة نلمسها بوضوح في كثير من الفرق الصوفية التي تجعل من المريدين قطيعا من المستسلمين لإرادة الأقطاب الذين "شكلوا نسقا خطايا مختلف المكونات والظواهر النصية، من شعر وقصص و أدعية و مناجات وحكم وأخبار تتظمها مجموعة من القوانين التي تحكم العلاقات و التفاعلات فيما بينهم، قصد بلوغ هدف معين" 15.

والأصل أن ينظر الخطاب الديني إلى الذات البشرية المخاطبة نظرة شمول تتسم بعموم الرؤية التي:

المنارة للاستشارات

www.mana

أ- تولي أكبر القدر لأنانية النفس في السعي للمنفعة الذاتية.

ب- تنبّه لنزعة النفي إلى التملك و الكسب.

ج- تعتبر سعي الذات وراء السعادة و اجتناب الألم¹⁶.

و بهذه الرؤية يتم التواصل في الخطاب الديني على مستوى الذات، وعلى مستوى الآخر يكون التواصل في موقفين، أولاهما: مراجعة الخطاب لصورة المسلم في صلته بالآخر، و ثانيهما: سعي الخطاب في صناعة الذات العربية المسلمة، حتى تحقق الشهادة على الناس كما أرادها الله سبحانه¹⁷.

ومن مظاهر أزمة الخطاب الديني المعاصر اهتمامه بوعظ الناس في شؤون العقيدة و الشريعة و إهماله جانب الحياة وتعميرها، وهنا يكون الاستفهام مشروعا للطرح: كيف نكون شهداء على الناس والحجة قائمة علينا لا لنا؟

إن واقع أزمة الخطاب في عزوفه عن الاشتغال بالتعمير في نواحي الحياة الدنيوية خلل أفرغ الذات المسلمة من واجبها لتعمير آخرتها بالتمكين للدين في الأرض، وبدل ذلك تجد الداعية يلح في الدعوة لتعمير المساجد للذكر وتلاوة الأوراد. وهذا جميل وطيب ومحبذ أن تذكّر الله ونحن نعمل بإخلاص وتقان في واجب وظيفي أو مصلحة عامة.

هذا ما يدعو إليه فقه الواقع بمقتضى الدين ومقاصده، وبهذا نقيم الحجة لنا و نكون فعلا شهداء الله في الأرض ويقول النبي صلى الله عليه و سلم "أمّتي، أمّتي... بدل: "سحقا... سحقا" "بعدا...بعدا" لأننا بدلنا بعده...

إن الخطاب يحتاج إلى تجديد بصورة تجعله يستشرف الوضع لا يستدركه، لأننا في آخر رتل الأمم في حقيقة الإيمان، و ندعي الإيمان قولاً،

www.mana

والإيمان منّا براء، فالإيمان تصديق و قول و فعل، فأين محل القول و الفعل من التصديق؟

" أمة تعتبر العمل من الكماليات الخفيفة، كيف يقوم لها دين؟ أو تقوم بها دنيا؟

إن الله - عز وجل - جعل العمل رسالة الوجود ووظيفة الأحياء، وجعل السباق في إحسانه سر الخليفة ودعامة الحساب. قال تعالى "الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا، وهو العزيز الغفور" الملك / 2"18

إن على الخطاب أن يرتقي إلى مستوى الأمة كما أقرّها القرآن "كتّم خير أمة أخرجت للناس"، ولتحقيق هذا على الخطاب أن يدعو " الأمة الإسلامية كي تكون على مستوى دينها، و كي تكون راسخة القدمين في شؤون الحياة كلها، بل يجب أن تكون سبّاقة في شتى الميادين، مسموعة الكلمة في آفاق العلم برا وبحرا و جوا"19. و إلا فلا نعاتب الأمم العظمى، ولنلم أنفسنا لأن من حق الأمم الكبرى - و هي تحتقر الأمية العلمية والصناعية - أن تنظر إلى دعاوي المسلمين و أفكارهم و قيمهم بريية أو بسخرية ما دام المسلمون نماذج رديئة للتخلف الإنساني"20.

فانعدام تواصل الخطاب بالفهم الصحيح لتعاليم الدين يورث التدين الطقوسي ويغلب مفهوم التدين بالعادة بدل العبادة، والتمكين لدين الله بالعلم والصناعة من أشرف العبادات كما يقتضيها الدين وفق مقاصده في عصرنا الحالي. " ومن المستحيل إقامة مجتمع ناجح الرسالة إذا كان أصحابه جهالا بالدنيا عجزة في الحياة، و الصالحات المطلوبة تصنعها فأس الفلاح،

وإبرة الخياط، وقلم الكاتب، ومشروط الطيب، وقارورة الصيدلي، ويصنعها الغواص في بحره، والطيار في جوه، والباحث في معمله، والمحاسب في دفتره، يصنعها المسلم صاحب الرسالة و هو يياشر كل شئ، ويجعل منه أداة لنصرة ربه و إعلاء كلمته" 21 .

3- الخطاب الديني و فكر المقاصد

إذا كان إشكال الخطاب الديني المعاصر في غياب فكر المقاصد، فإن رفعه يكون في حضور المقاصد قبل ابتداء الخطاب، إذ الأولى أن تكون في مرحلة رسم الأهداف مبعثا، و في درجة خط الغايات منطلقا على مستوى ما يستهدف المخاطب من جلب المصالح بمراتبها الثلاث و هي: "الكليات و التحسينات والحاجيات" درءا للمفاسد .

وقبل الوقوف على حقيقة الحلول قد يكون مجديا إعطاء مفهوم للعقل باعتباره منطلق المصالح، وذلك لضرورة تحقيقه في المقام الأول لدى الملقى والمتلقي في المقام الأول.

لقد أودع الله سبحانه و تعالى في العقل البشري قدرة هائلة على الفهم والإدراك والمحاکمات العقلية، وهذا ما جعل الإنسان في قمة الهرم بين المخلوقات، وقد قدّم لنا علم التشريح المقارن دلائل بينة على ما يمتاز به العقل البشري من قدرات و طاقات لا يكاد العقل نفسه أن يحيط بها، وهذه من آيات الإعجاز الإلهي دون ريب.

"العقل نعمة من أعظم النعم التي اختص الله عز و جل بها الإنسان، وميزه بها عن سائر المخلوقات، فقد جعله بالعقل يدرك حقائق الوجود، ويميز بين الحق و الباطل، و الحلال و الحرام، و به يهتدي إلى تحقيق المصالح

و اتقاء المضار، و به يتواصل مع بني جنسه، و لولا العقل لظل الإنسان مثل بقية السوائم التي ما زالت تهيم على وجهها في القفار" 22 .

ذهب أهل اللغة إلى أن العقل يعني "الفهم و الحجر والنهي، لأن العقل يحجر هذا الإنسان و ينهاء عما يردّه... و قد سمي العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك" 23 .

وعليه، فالعقل ملكة و فعل ليس بعضو من أعضاء الجسم، ولم يرد لفظ العقل في القرآن الكريم بصيغة الاسم على الإطلاق، إنما جاءت مشتقات العقل في 49 آية بصيغة الفعل "عقلوه - نعقل - يعقلها - يعقلون - تعقلون" .

وذهب أهل الفكر إلى أنّ العقل قوة إدراكية تفوق قوة الحواس، ولكنها تليها في الرتبة ، إذ كثيرا ما يعتمد العقل علي معطى الحواس تحليلا وتمييزا، بل حكما وفصلا في المسائل. وإذا نظرنا في منزلته بين الكليات التي جاء الإسلام لحفظها، وجدناه يتوسطها (الدين - النفس - العقل - العرض - المال) على الترتيب الراجح عند المقاصدين. و في هذا إشارة من الفقهاء والأصوليين و المقاصدين على منزلته وخطورة وظيفته في مراقبة صاحبه، وهو يتعامل مع الناس في ما جاء الإسلام لحفظه وصيانتهم في الفرد والجماعة. وإذا كان الأمر كذلك، فإنه لمن الأوجب على المشتغل بالخطاب الديني أن يحتاط لما يقول ويدعو إليه، فالأمر جلل، والخطب صعب، ولا أستبعد أن يكون شأن المخاطب شأن الموقع عن الله كما كتب ابن القيم الجوزية (751هـ) في مصنفه الماتع "إعلام الموقعين عن رب العالمين".

المنارة للاستشارات

www.mana

و لأهمية العقل في علم المقاصد، فقد رجح بعض الفقهاء "استقلالية العقل في معرفة المصلحة و المفسدة، و هذه القضية هي تماما مسألة التحسين و التقيح العقليين، المطروقة في كتب علم الكلام و أصول الفقه"24.

و لاشك أن العقل - الفردي أو الجمعي - لا يؤدي له دورا إلا إذا توفرت في مقصدية تكوينه ثلاثة عناصر أساسية هي للفرد حق أن تزرع فيه وأن ترقى في كفاءته، وأن نزكي توظيفه لها في شأنه كله.

هذه العناصر هي: "تنمية العقل - وحفظ العقل - وإعمال العقل"، وقد درج المقاصديون على تسمية هذه الغاية بـ "اعتبار العقل".

فعلى المشتغل بالخطاب الديني أن يأخذ بهذا المبدأ الذي يحترم من خلاله عقله ويزكي بذلك منطقته، وحتى يتضح المقصد على المخاطب أن يراعي هذا المبدأ (اعتبار العقل)، إذ ما يعرف العقل إلا باعتبار وظائفه التي تنص عليها الآيات القرآنية، في ضرورة إعمال العقل في القضايا الفكرية والمسائل العلمية، أي فريضة التفكير كما يحلو للبعض تسميتها، أو سنة التدبر، و تلك من السنن المهجورة.

ويذهب بعض العلماء في مسألة حفظ العقل من الوجود المفسد له عن طريق تعلم العلوم وممارستها و مذاكرتها حتى يُحفظَ العقل و يُنمى، ذكر هذا الشاطبي (790هـ) 25 قديما و القرضاوي حديثا، واستلا بقوله تعالى: "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون" وقوله سبحانه: "وقل ربي زدني علما".

إن من أدبيات الخطاب عموما والديني خصوصا أن يكون الكلام علميا يحترم فيه المتخاطبان أصول النقاش أو المناظرة، وتحكيم العقلية العلمية

التي تلتبس اليقين و ترفض إتباع الظن وإو إتباع الهوى، كما ترفض التقليد للآباء وللإسادة الكبراء، أو لعوام الناس، شأن الإمعة، والدعوة إلى النظر والتفكير"26 في جموع أدلة النص أو القضية تركية للنفس و طلبا للحق. تلك مرجعية الخطاب في ذات المتخاطبين لا للهوى أو انتصارا للذات.

إن المنهج الذي يجب أن يزكى هو منهج الاعتدال منهج "أهل الوسط الذين لم يفرطوا... وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان وأئمة الإسلام كالفقهاء المشهورين ومن سلك سبيلهم من أهل الفقه والحديث والمتكلمين في أصول الدين وأصول الفقه، فالحكمة عندهم ناشئة من أمر على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أن يكون الفعل مشتملا على مصلحة... فهذا النوع حسن ، و قد يعلم بالعقل و الشرع.

النوع الثاني: أن ما أمر به الشارع و نهى عنه صار متصفا بحسن اكتسبه من الأمر، و قبح اكتسبه من النهي...

النوع الثالث: أن تكون الحكمة ناشئة من نفس الأمر"27.

إذا ضالة الخطاب هي الحكمة بعقل، وتلك العملة يجب على الخطيب اقتفاء أثرها دون تعصب لأي عامل في دورة الخطاب. قال الشيخ محمد رشيد رضا يتحدث عن هذا الحال: "المتعصبون للمذاهب أبوا أن يكون الخلاف رحمة، و تشدد كل منهم في تقليد مذهبه، وحرّ على المنتمين إليه أن يقلدوا غيره، ولو لحاجة فيها مصلحتهم، وكان من طعن بعضهم في بعض ما هو معروف في كتب التاريخ وغيرها،

حتى صار بعض المسلمين إذا وجد في بلد يتعصب أهله لمذهب غير مذهبه ينظرون إليه نظرتهم إلى البعير الأجرب بينهم"28.

فالتعصب مشين في الخطاب خاصة الديني منه، كما أن الخطاب إذا خالطه الانفتاح والعدل لا شك أن ذلك يزيه و لنا في مناظرات الشافعي أكبر مثال في ذلك 29، وكيف كان ينبغي الحق على لسان خصمه حبا في العلم والحق لا انتصارا للذات.

ومن العقل الراجح أن تقدم المصلحة الأولى فالأولى خدمة للصالح العام، وهذا المقرر في علم الأولويات، هذا ما إستفاده علم المقاصد"من الدراسات المكثفة لسائر الجوانب الفاعلة و المؤثرة في حياة الأمة:السياسية منها والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، واستعمالها في سائر العلوم الإنسانية الاجتماعية أو رصيد الخبرات والتجارب الإنسانية للوصول إلى تحديد مناسب لأولويات الأمة في مرحلة زمنية محددة"30.

ولذلك جعل المجتهدون المقاصد قبلة لهم حتى يسلموا من الزلل والخطل، فمن احتاط سلم و نجا، و هذا المنهج أسلم من الاندفاع في شأن الأمة نخبط الخبط العشوائي في مصيرها، وأحوط في درء المفسدة التي نخشى الوقوع فيها، ونحن نريد المصلحة. والمقاصدي لا يندفع في إجراء الأفكار إلا بعد غربلتها وتنقيتها من الشوائب و تمريرها في مصفاة المقاصد التي تتقيد بقيد الشرع و مصالح الأمة، فالمقاصدي ينطلق دائما من أن المخاطب له مقاصد معينة و عاني محددة ، وهي التي يريد تبليغها للمخاطب، وأراد من المخاطب فهمها واستيعابها وإنفاذها، وأن اللازم

هو تحري مقاصد الخطاب كما يريد لها صاحبها و الوقوف عندها، بلا نقصان ولا قصور، و لا زيادة و لا تجاوز"31.

ولقد أبدع الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في محاولة وضع حدود يلتزمها الخطاب من خلال مؤلفه "ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية"، و قد جعلها اثنتين:

1- على المخاطب أن يحتاط مما يخالف في جوهره مقاصد الشريعة

2- على المخاطب أن يحتاط مما ينقلب بسبب سوء المقصد إلى وسيلة لهدم المقاصد"32، فكم من ملق لخطاب لم يدرك مقاصده لعدم وقوفه على ملابسات الموضوع، أو طبيعة الظرف، أو حقيقة من يخاطب، فالأولى: الأخذ بمبدأ القصد، لقوله صلى الله عليه وسلم: "القصد القصد، تبلغوا"، ففلاح الأمة في صلاح الإنسان، إذ أنه صنعة الخطاب الديني، يقول العلامة الطاهر ابن عاشور في مؤلفه (مقاصد الشريعة الإسلامية): "إن حفظ نظام الأمة و استدامة صلاحه يكون بصلاح المهيمن عليه و هو الإنسان، ويشمل صلاحه عقله وصلاح عمله، و صلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه"33. فالعقل عند ابن عاشور هو موجه دفة الخطاب، لذا كان من أرشد ما ندعو إليه الأمة هو بناء عقل الإنسان و تنميته وترشيده.

وللعقل حدود ينتهي إليها، و مراتب يقف عندها، و عوالم يحتاط في التعامل معها متى ما تناول قضية في الخطاب، فدونه ضوابط يستدل بها، ويستنير بنورها، وعاملي الزمان والمكان، لهما أكبر الأثر في تحقيق المسائل ومناقشتها، وحتى لا يقع في المحذور أو يوقع غيره فيما لا تحمد عواقبه، عليه أن يضع جانبا ما خفي عنه، أو التبس عليه أمره، وليتحدث فيما يحسن،

وليسأل فيما لا يعلم." إذن، فما هو وراء العقل قد يكون بعيدا عن تصور العقل و توهمه بعدا بالغ النهاية، لأن العقل محبوب عنه في حدوده التي لا يستطيع أن يتعدّاها"³⁴، و لا يكتفي بقوله:"وللبحث أو للخبر أو للقضية مصادر موثقة"، فالعقول تختلف، و الثقة تميز مراتبها من شخص لآخر، والخبر تتباين درجاته من عقل لآخر ما لم ينضبط بضوابط علمية، فمن نصدق؟ وكيف نحل ما لم يصدق الخبر؟

فليس لنا من سبيل إلا توثيق الخبر، وموضوعية التحليل، واستخلاص النتائج، وتحكيم العقل فيما نقول ونكتب بمعية المقاصد الشرعية ابتداء وانتهاء، ليسلم الخطاب من أزمات الراهن. خاصة، و نحن لا نتناول بالدرس والتحليل أي خطاب، ثم هذا الخطاب لا يتناول أي قضية، إنه الخطاب التي يتناول قضايا الدين، والدين علم.

فأنظر ما مقاصد الخطاب؟

وفيما الخطاب؟

وكيف يجري الخطاب؟

ومن نخاطب؟ .

- الإحالات والهوامش:

- 1- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (أزم)، دار صادر، بيروت، ط4، 2007، 1/100.
- 2- إسماعيل عبد الفتاح عبد الباقي، الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية، مؤسسة الرسالة، ط3، 2009، ص37.
- 3- حسن الصفار، الخطاب الإسلامي و حقوق الإنسان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005، ص19.
- 4 - ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (خطب)، دار صادر، بيروت، لبنان، ط4، 2007، 5/98.
- 5- محمد بن شاكر الشريف، تجديد الخطاب الديني بين التأصيل و التحريف، مكتبة فهد الوطنية، الرياض، ط1، 2004، ص19.
- 6- ينظر زياد حافظ ، الخطاب الديني والتجديد الحضاري في الأمة العربية، المستقبل العربي، السنة 35، العدد 2-4، آب-أغسطس، 2004.
- 7 - نور الدين بن مختار الخادمي، علم المقاصد الشرعية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 2001، ص15.
- 8 - محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط10، 2009، ص10.
- 9 - عبد الحميد أحمد أبو سليمان، أزمة العقل العربي، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، دت، ط1، ص51.
- 10 - CL. Lévi-Struss, La Pensée Sauvage, Librairie Plon, 1962, Paris 6e, P 349
- 11- ابن خلدون، المقدمة، دار الهلال، بيروت، ط1، 1988، ص88.
- 12- نفسه، ص89.
- 13- ينظر: جمال البنا، تجديد الخطاب الديني و إعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية، مكتبة الإسكندرية، ط1، دت، ص7.
- 14- ينظر: محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2001، ص101 و ما بعدها.

- 15 - ينظر: محمد قطب، دراسات في النفس البشرية، دار القلم، القاهرة، دت، دط، ص 271 و ما بعدها.
- 16-آمنة بلعلی، الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص18.
- 17 - لقوله تعالى: " و كذلك جعلناكم أمة وسطا، لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا" البقرة/ 143.
- 18- محمد الغزالي، عقيدة المسلم، شركة الشهاب للنشر و التوزيع، الجزائر، دت، دط، ص132-133.
- 19- محمد الغزالي، سر تأخر العرب و المسلمين، دار البعث، قسنطينة، دط، 1986، ص113
- 20- المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- 21 - محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، دار الأمة، قطر، 1406، ص23.
- 22 - أحمد السحمراني، عقل الإنسان، تر: جلال مهدي حسين، دار النفائس، دمشق، ط2، 2005، ص341.
- 23 -ابن منظور، لسان العرب، مادة(عقل)، 10/ 232.
- 24 - يوسف أحمد محمد البدوي، مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، دار العصيمي، الرياض، ط1، 2009، ص291.
- 25 - الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي، الموافقات في أصول الدين، تح: أحمد السيد سيد أحمد علي، المكتبة التوفيقية، بيروت، لبنان، دط، 2003، 1/ 149.
- 26 -يوسف القرضاوي، الحل الإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، دط، 1981، ص51.
- 27- يوسف أحمد محمد البدوي، مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، ص292.
- 28- ما لا يجوز الخلاف فيه، رشيد رضا، ص134، نقلا عن: العقل الفقهي، أبو أمانة الشلي، دار السلام، ط1، 2008، ص67.

- 29- ينظر: السكوني، أبو علي عمر(717هـ)، عيون المناظرات، تح: سعد عراب، منشورات الجامعة التونسية، 1979.
- 30- طه جابر العلواني، مقاصد الشريعة، دار الهادي، بيروت، ط1، 2001، ص77-78
- 31 - أحمد الريسوني، الفكر المقاصدي- قواعد و فوائده، منشورات جريدة الزمن، الدار البيضاء، ط، 1999، ص93.
- 32- ينظر: محمد سعيد رمضان البوطي، ضوابط المصلحة في الشريعة الاسلامية، دمشق، ط، دت، 124.
- 33- الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة الاسلامية، دار السلام، ط3، 2010، ص272.
- 34- عبد الرحمن حبنكة الميداني، ضوابط المعرفة، دار القلم، دمشق، ط13، 2014، ص131.



المنارة للاستشارات

www.mana



www.mana